الذين يزرعون الخوف

التيار العلمانى فى مصر التقط حادثة الشباب المتهوس الذى اعتدى بالجنازير والمطاوى على الحفل الراقص بالجامعة وملأ الجرائد صراخًا وعويلًا، وحاول البعض أن يجعل من الحادث الفردى المحدود قضية، ثم أزمة عامة عن اضطهاد الدين للفن وعدوان الدين على الفن، وانعقدت ندوات، وقام خطباء يتحدثون عن محنة الفن ومستقبل الفن فى مواجهة القهر، وعن رجوعنا القهقرى إلى الوراء إلى العصور الوسطى المظلمة، وخرجت مانشتات مثل مارشالات الرعب.. وجنرالات الحلال والحرام.

وتجاوز الهدف مجرد التعليق على خبر إلى التخويف من كل ما هو إسلامى، وإلى التلويح بالعصر الخومينى القادم، وإلى الفاشية الدينية التى تتربص بمصر الدوائر.

ولم يعد المتهم هو بضعة نفر من المراهقين، وإنما الإسلام نفسه والتيار الإسلامى كله، ثم الأزهر، والمؤسسة الدينية، والصحوة الدينية، والبرامج الدينية، الكل أصبح فى قفص الاتهام.

وانبرت أقلام الدعاة الأفاضل، وطلع المشايخ بمقالاتهم

يدفعون عن الإسلام التهمة، ويدللون بالقرآن وبالحديث الصحيح وبالثابت فى موضوع السماع على براءة الدين من هذا التعصب.. وما كانوا بحاجة إلى كل هذا.. فالشيخ صبح، والشيخ على محمود، وغيرهما كانوا يغنون القصائد على التخت إلى عهد قريب، وأم كلثوم تعلمت الأداء على يد الشيخ أبى العلا محمد، شيخ الملحنين فى زمانه، وكان جوابها لكل من يسألها عن سر نطقها السليم ونبراتها الجميلة فى الأداء: إنه القرآن، وحفظها للقرآن الكريم من الصغر.

وحرمة الموسيقى غير واردة فى تراثنا الدينى.

والفن لم يكن ضد الدين فى أى مرحلة من مراحل التاريخ المصرى القديم والحديث.. وإنما كان توءما وشقيقًا ومصاحبًا له طول الوقت، ومن خمسة آلاف سنة بنى الفنانون الأهرامات والمعابد، ونقشوا جدرانها، وزينوا سقوفها، وعازفة الهارب مرسومة على جدران مقابر الملوك.

وفى العصر الإسلامى كان الفنان هو الذى بنى القباب والمآذن والمنابر والمشربيات.. والمشكاة والمكحلة وأوانى العطر والزهريات الجميلة تحكى لنا عن فن الخزّاف الإسلامى وإبداعه، ولوحات السجاد الكاشانى الفاخر، وفنون الأويمة.. وكلمة العود دخلت بنصها العربى فى كل اللغات الأجنبية، والموشحات الأندلسية دخلت فى السيمفونيات الأوربية.

إن كل هذا التخويف من الدين تهريج.

وإذا كان الرفاق العلمانيون يريدون أن يقولوا لنا من طرف خفى.. إن ما حدث هو دليل قاطع على أن نظام الحكم العلمانى هو النظام الأمثل لمصر ولأمن مصر.. فإنى سوف أذكرهم بأن لبنان نظامها علمانى، فأين حظها من الأمن والأمان والحرب الأهلية تأكلها من اثنتى عشرة سنة، ولا تدع فيها حجرًا على حجر، واليمن الجنوبى شيوعى علمانى ومع ذلك يعيش حربًا دموية بين الإخوه الماركسيين لا تنتهى.. والحبشة يحكمها منجستو بنظام علمانى، وهى تئن من الجفاف والمجاعة والحرب الأهلية والقتال الدموى بين أبناء الوطن الواحد.

وغبار المقالات لن يحجب الحقيقة.. إن ما حدث جريمة لا تختلف عن جرائم الكلوكلوكس كلان فى أمريكا وأوربا وهى قد اتخذت مثلها من الدين ستارًا، ولكنها لا تمت إلى الدين بسبب. ولكن جذور المشكلة وأسبابها فى المجتمع نفسه وفى شكل الحياة التى أصبحنا نعيشها.

ولن يختلف معى أحد على أن الكثير من أشكال الفن الذى يعرض علينا الآن فى السينما والتليفزيون والمسرح لا يدخل تحت اسم الفن، وإنما هو إهانة للفن، وهو يستفز المشاهد بتفاهته وهزاله.. وبعض أفلام الفيديو المصرية تكاد تدخل فى اختصاص بوليس الآداب، وبعض الأغانى هى كباريه درجة ثالثة.. وبعض

الهزليات المسرحية هى رقص مواخير.. وإسفاف وتهريج وبذاءات.. يمكن أن تشطب عليها الرقابة وتمنعها الدولة، ليس بسبب الدين ولكن بسبب الحياء.

مثل هذه المشاهد مع المعاناة الموجودة ومظاهر الغنَى الفاحش والفقر المدقع يمكن أن تستفز أىَّ شابٍّ مُتهوس وتدفعه إلى الجريمة.

ولم يحدث فى تاريخ مصر أن تحالف عليها هذا الكم من المشاكل التى تأخذ بالخناق.. الجفاف، والديون، والجراد، والتصحر (هجوم الصحراء على الرقعة الخضراء وردمها)، والتآكل (هجوم البحر المالح على الشواطئ وغمرها)، والنحر (هبوط نهر النيل بسبب نحر الماء الخفيف الخالى من الطمى للمنشآت والشط)، وأزمة الطاقة (بسبب هبوط الكهرباء)، وأزمة الغذاء بسبب ضعف الإنتاج.. والانفجار السكانى، ٥٤ مليونِ فم يأكل ولا يعمل.. والبطالة بسبب عدم استيعاب المشروعات الموجودة للأيدى العاملة.. والدعم الذى يذهب إلى البالوعة.. ومجانية التعليم التى تحولت إلى اللامجانية واللاتعليم.. والإرهاب، والمخدرات، والتطرف، والفتنة الطائفية.. وفوق كل هذا انقسام الصف العربى، وتنامى قوة إسرائيل، وتفاقم عدوانها، وتحولها إلى قوة نووية وحيدة عابثة فى المنطقة.. ثم أسوأ من كل هذا.. انهيار الأخلاق، وفساد الذمم، وضياع القيم، وتفشى الكذب، والغش،

والتزوير والرشوة، والسرقة، وفى مواجهة كل هذا جبهة مثقفة منقسمة بين يمين ويسار، وأحزاب ومهاترات، وأفكار مستوردة، وجدل بيزنطى، وقلة من شباب متهوس تتصور أن الحل هو الثورة والانقلاب، وأن تخلع الجالس على الكرسى وتجلس مكانه.. ولا يوجد حل أكثر سذاجة من هذا، وهو أشبه بحل أزمة المرور بإلغاء الإشارات، وحل مشكلة الظلم بالفوضى.

ومشكلة مصر لا يحلها استبدال شخص بشخص.. والمسألة غير هذا تمامًا.

فالعيب فى المناخ العام وفى مستوى الوعى.. العيب فى الناس صغارهم وكبارهم.. العيب فى التعليم الهابط وما يفرزه من لياقات هابطة وعقليات هابطة.. العيب فى النمط الاستهلاكى من الحياة وما يفرزه من جشع مادى وتهالك وسلوكيات أنانية.. العيب فى روح السلبية والكسل، وعدم المبالاة، وعدم الانتماء.. العيب فى ثقافة التسلية وقتل الوقت، والإعلام الترفيهى، ومسرح الهزل، وصحافة المهاترات، وأغانى الكباريه، ورقص المواخير.

واليسار المصرى وقدامى الماركسيين الذين أصابهم تصلب الشرايين مازالوا واقفين عند شعاراتهم البالية يرددون نفس المواال القديم عن القطاع العام والتأميم وملكية الدولة لوسائل الإنتاج، وصرخاتهم التى تعالت وارتفعت لمجرد التفكير فى بيع فندق سان ستيفانو كشفت عن مدى التخلف العقلى الذى يعيشون

فيه، وكأنهم حفريات چيولوچية متحجرة لكائنات انتهى عصرها.

والظاهر أنهم لا يدركون أن الدنيا تغيرت من حولهم، ولا يعرفون أن البرافدا أصبحت تتكلم بلغة جديدة.. وكذلك صاحبهم ميتران فى فرنسا الذى خلع ثوب الأيديولوچية اليسارية، وأسقط كلمة الاشتراكية من قاموسه، ودخل الانتخابات بشخصه، لكى يستطيع الحصول على صوت الناخب الفرنسى الذى لم يعد يستهويه الدجل الاشتراكى.

لقد سقط اليسار يا سادة، والشيوعية لم تستطع أن تحصل إلا على ستة فى المائة من الأصوات فى الانتخابات الفرنسية الأخيرة، أى أقل من نصف ما حصل عليه لوبن الذى يسمونه فى فرنسا اليمينى القذر.

يا إخوة.. أفيقوا.. لقد تغيرت الدنيا.

وحزب التجمع حينما يضع يده فى يد حزب الوفد ليضرب الحكومة هو لم يضرب الحكومة، بل ضرب نفسه بالضربة القاضية، وأثبت أن مبادئه قابلة للبيع فى سبيل ربح تافه، أو حتى مظنة ربح.

إن أكثر القيادات التى تتصدى لهذه المرحلة التاريخية من حياتنا هى للأسف دون مستوى المسئولية، ودون مستوى المرحلة بكثير.

والتيار الإسلامى برغم انحراف القلة وضياعها فى الشكليات والمظهريات مازال هو الذى يملك القدرة على التنوير والتغيير، لأنه التيار الوحيد الذى يملك التأثير، والوحيد الذى يملك قدرة التغيير من الباطن بإيقاظ الضمائر وتحريك القلوب، وهذا هو المطلوب بالضبط فى هذه المرحلة التاريخية.. ليس الثورة ولا الانقلاب، ولا استبدال الكراسى.. وإنما إيقاظ الضمائر، وتحريك القلوب، والنفخ فى موات القيم لتصبح النفوس غير النفوس، وهذا هو الشرط الوحيد الذى شرطه علينا ربنا ليغيرنا.. أن نتغير من داخلنا.

﴿إنَّ الله لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِم﴾.

تغيير ما بالنفس هو الشرط.. وهو أمر باطنى لا يقدر عليه إلا تنوير دينى.. وإشراق عرفانى.

أما اليسار السعيد فله أن يخطب ما شاء من الخطب، ويدبِّج ما شاء من الكتب، ويسود ما شاء من الصحف، فلن يستطيع أن يفعل شيئًا.. فلا أحد يقرأ له أو يستمع إليه أو يصدقه.. وقد أخذ فرصته على مدى عشرين عامًا، وطبق برامجه، وفرض نظرياته، وانتهى بنا إلى هزيمة ٦٧ وإلى الخراب الاقتصادى الذى مازلنا نعيش فيه، وإلى الحلقة المفرغة الموحلة التى نحاول أن نخرج منها.

واليمين البائد عشنا رحلته الطويلة القديمة حتى حريق

القاهرة وشهدنا فشله، وما زلنا نسمعه إلى الآن يتكلم بنفس اللغة، وقد نسى تمامًا أن الزمن تغير، والمشاكل تغيرت، والتناقضات اختلفت، والخريطة السياسية اختلفت، والأكليشيهات القديمة لم تعد تنفع، والمهاترات لم تعد تفيد.

وقد انتظرنا أن يخرج من كنانته بضاعة جديدة وأفكارًا جديدة، فلم يخرج شيئًا، وعادت صحافته إلى الشتم والمهاترات.

ولم يبق إلا التيار الإسلامى.

والإسلام هو الحل، ولكن ليس الإسلام الشكلى، ولا التدين المظهرى، وإنما الإسلام فى حقيقته وجوهره.. إسلام العلم والعمل ومكارم الأخلاق.. إسلام الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية.. إسلام الفكر والفعل.

إن جاهلية قريش لما اختلفوا على مَنْ يحمل الحجر الأسود ويضعه فى مكانه وأوشكوا على الشجار والقتال ظهر لهم محمد على رأس الطريق.. لم يقولوا جاء ذو اللحية، جاء محمد.. بل قالوا:

جاء الأمين، جاء محمد.. (لأن الأمانة كانت جوهر الموضوع، وكانت هى أساس التفضيل).

وحسنًا أن نقلد النبى ﷺ فى كل شىء، ولكن تقليده فى مظهره وحده لن يفى بالغرض، أما تقليده فى أمانته ومكارم أخلاقه وشهامته وشجاعته وكرمه وحلمه وأبوته وصبره وجلده

وإيمانه، فهى هنا روح المسألة.

والخلاف فى الشكليات خروج بالإسلام عن روحه ومضمونه، كما أن الإغراق فى الغيبيات خروج بالإسلام عن روحه ومضمونه.

والأمل أن تفرز الصحوة الإسلامية قيادات مستنيرة تعيش محنة العصر بمتغيراته، فلا تفرق جماعة المسلمين فى الخلافات الشكلية، ولا تضيع همتهم فى المتاهات الغيبية.

قيادة تمثل الوسط العدل، وتلتقط بحسها المرهف روح العصر التى تتمثل فى انطلاقة العلم واندفاع العقل، وتزاوج بينها وبين القيم الإسلامية الرفيعة، والأخلاق الإسلامية الأصيلة والتوحيد الإسلامى الخالص.

قيادة يصنعها الله على عينه.

وإنه لفاعل، فالله لم يخلق العالم ليتركه سُدًى، ولم يبعث بالديانة الخاتمة ليدعها هملاً.

ولكن علينا أن نقوم بدورنا.. فنغير ما بأنفسنا
علينا أن نحرث أرضنا ونستصلح نفوسنا البور.

ونستطيع أن نفعل الكثير بنفس النظام ولكن بإدارة أحسن، وبأخلاقيات أحسن، وبعمل أكثر، وبحماس أكبر نحو الإتقان والإجادة.

وبرغم عيوبنا فقد استطعنا أن ننهض بعد كبوة عبد الناصر، واستطعنا أن نخرج من هزيمة ٦٧، ومن المرافق المهلهلة والمصانع المعطلة.. وأنشأنا بنية أساسية جديدة من العدم، مدنًا، وموانى، ومصانع، وكبارى وسنترالات، وأنفاقًا، وطرقًا، وأراضى مستصلحة، ومحطات توليد كهرباء، ومستشفيات، ومدارس (حجم من الإنشاءات أكثر من عشرة أضعاف السد العالى فى أقل من عشرين سنة) لكن سرعة التفريخ البشرى والانفجار السكانى يلتهم معظم خيراتها.

وعلينا أن نكون أكثر جدية فى ضبط النسل.

إن الثورة المطلوبة ثورة داخلية.. ثورة كل منا على نفسه.

واستنهاضه لأفضل ما فيه.

وتحريكه لأنبل ما يبطن من إمكانيات.

وفى هذا المجال لا شىء يفعل فعل الدين والإيمان.

الدين الحقيقى، والإيمان الحقيقى الذى لا يضيع فى الشكليات والمظهريات والجدل العقيم.

إن الشباب الذى يجلس على الرصيف السياسى ليفتى بأن لعب الكرة حرام، والجمباز حرام، والموسيقى حرام، وخروج المرأة للعمل حرام، وصوتها عورة، والاختلاط بها إثم، والمشى فى الشارع إفك، وحلق اللحية كفر، وتقبيل راية الوطن شرك، والتطوع فى الجيش خطيئة.

هذا الشباب لا يمثل الإسلام، ولا يمثل آمال بلده، وإنما يمثل على الأكثر أمله فى أن يصبح زعيمًا وأن يكون له حكم وسلطة على رقاب الناس.

وهو ليس أكثر من هامش لتيار عريض مازال سليمًا.
ولا أحد يصبح نابليون لمجرد أنه يحلم بأنه نابليون.

ولا أحد يملك أن يغير التاريخ بهواه، وإنما الله هو الذى يضع هؤلاء الذين يغيرون التاريخ فى مناصبهم للمدة التى يراها وللحكمة التى يعلمها.

والله لن يضع هؤلاء الشباب الصغار فى حكم، ولن يسلمهم سلطة.

والله لا يلعب النرد بالكون كما يقول أينشتين.. وإنما كل شىء عنده يجرى بمقدار.. بنظام، وقانون، وحكمة، وانسجام، وتناسق لانهائى.

وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح.